الفصل الخامس

من قضايا الفكر الفلسفى الإسلامى

١ الفكر الإنسانى بين الحقائق والأوهام .

٢ أزمة النقد فى حياتنا .

٣ التيار النقدى فى الفلسفة الإسلامية .

٤ الدور التنويرى لفلسفة ابن رشد .

٥ مناهج العلوم وفلسفتها من منظور إسلامى .

obeikandl.com

obeikandl.com

١ الفكر الإنسانى بين الحقائق والأوهام(*)

الإنسان هو الكائن الوحيد الذى اختصه الله بالعقل . والوظيفة الأساسية للعقل هى التفكير الذى يقود حركة الحياة . ومن هذا المنطلق جعل الإسلام من التفكير فريضة دينية . ولو تجرد العقل من المؤثرات السلبية التى تعكر صفو تفكيره لتوصل دائماً إلى الحق الذى لا شائبة فيه . وعلى الرغم من أن التجرد الكامل أمر فى غاية الصعوبة فإن طبيعة العقل الإنسانى تأبى الاستسلام لأى معوقات أياً كانت . ومن هنا تتواصل محاولات الإنسان ومساعيه الدءوبة فى كل العصور لتصحيح مسار الفكر من أجل خير الحياة والأحياء .

وليس بالأمر الغريب أن يخطيء الإنسان فى تفكيره ، فكل بنى آدم خطاء ، ولكن الإصرار على الخطأ هو الأمر المرفوض . وفى هذا المقال نود أن ننبه إلى أحد الأخطاء الشائعة فى حياتنا الفكرية والتى تؤدى إلى الكثير من البلبلة والخلط بين الحقائق والأوهام ، ونعنى بذلك المفاهيم التى يستخدمها كثير من الناس فى أحاديثهم اليومية دون التفات إلى تحديد ما تعنيه هذه المفاهيم بكل دقة . ويترتب على ذلك فى كثير من الأحيان استخدام هذه المفاهيم فى غير موضعها أو حتى عكس ما تعنيه فى حقيقة الأمر .

---

* نشر هذا المقال بصحيفة أخبار اليوم فى ١٥ / ٨ / ٢٠٠٩م .

وفضلاً عن ذلك فإن بعض المفاهيم يتم استخدامها بمعنى مطلق وكأنها الحق الذى لا شك فيه . ولا يلقى الكثيرون بالاً إلى أن ما يطلقون عليه حقائق لا يعدو أن يكون مجرد وجهات نظر تعبر عن أفهامهم الخاصة ، ولا ترقى بأى حال من الأحوال إلى مرتبة الحقائق المقررة . وهذا يؤدى بطبيعة الحال إلى الخلط بين الحق والباطل والصواب والخطأ ، الأمر الذى يكون له مردود سلبى على حياة الناس العملية وتعاملاتهم اليومية ، بل يمتد الأمر إلى نقاشاتهم على المستوى العلمى .

ودون الخوض فى تأملات فلسفية معقدة حول مفهوم " الحقيقة " يجدر بنا أن نشير فى هذا الصدد إلى أمر بالغ الأهمية وهو أن الحقيقة لها جوانب متعددة ، ولا يجوز بتر بعض هذه الجوانب أو تجاهلها والتمسك ببعض الجوانب الأخرى والادعاء بأن ذلك هو الحق الذى لا مراء فيه .

ولعل القصة المشهورة التى رواها أبو حيان التوحيدى فى "المقابسات" عن العميان فى وصفهم للفيل تقرِّب الأمر إلى الأذهان على نحو بعيد عن التعقيد . يقول التوحيدى فى ذلك : " سمعت أبا سليمان يقول ، قال أفلاطون : إن الحق لم يصبه الناس فى كل وجوهه ولا أخطأوه فى كل وجوهه ، بل أصاب منه كل إنسان جهة . قال : ومثال ذلك عميان انطلقوا إلى فيل ، وأخذ كل واحد منهم جارحة منه فجسها بيده ومثَّلها فى نفسه ، فأخبر الذى مس الرجل أن خلقة الفيل طويلة مدورة شبيهة بأصل الشجرة وجذع النخلة ، وأخبر الذى مس الظهر أن خلقته شبيهة بالهضبة العالية والرابية المرتفعة ، وأخبر الذى مس أذنه أنه منبسط دقيق يطويه

وينشره ، فكل واحد منهم قد أدى بعض ما أدرك ، وكلٌّ يكذب صاحبه ويدعى عليه الخطأ والغلط والجهل فيما يصفه من خلق الفيل " .

إن الخطأ هنا يأتى ـ كما هو واضح ـ من اختزال الحقيقة فى جانب واحد وتجاهل بقية الجوانب الأخرى . والدقة تقتضى ـ فى المثال السابق ـ أن يقول كل واحد منهم (تعبيراً عن العضو الذى لمسه) : إن الفيل ـ طالما أن الأمر يدور حول العضو الذى لمسته (رِجْل الفيل مثلاً) ـ شبيه بأصل الشجرة أو جذع النخلة .. إلخ ، ففى هذه الحالة يكون كلامه صادقاً تماماً ومطابقاً للواقع ، وهذا يعنى أنه مطابق للحقيقة .

ولكن الكثيرين يغلب عليهم الميل إلى تعميم الأحكام إما جهلاً أو عناداً . ومن شأن ذلك بطبيعة الحال أن يفجر الكثير من المشكلات والنزاعات بين الناس . وكثيراً ما يكون هناك نقاش أو حوار بين طرفين حول قضية من القضايا ، ولكن كل طرف يفهمها على نحو مختلف عن الآخر ، فلا يصل الحوار إلى نتيجة ولا تكون له ثمرة ، لأن كل طرف يغنى على ليلاه ـ كما يقال ـ .

ولو أن كل واحد من المتحاورين قد حدد منذ البداية بكل دقة مفهومه لموضوع النقاش لكان فى ذلك توفير للكثير من الجهد والوقت ، ولكان من السهل اختصار الطريق للوصول إلى تفاهم مشترك ، ولكان من السهل أيضاً تصحيح الأخطاء وتوضيح الأمور بطريقة عقلانية بعيدة عن العناد والسفسطة .

والمعروف أن السوفسطائيين فى تاريخ الفلسفة اليونانية كانت لديهم القدرة على قلب الحقائق ، فقد كان من السهل عليهم أن يقلبوا الحق باطلاً والباطل حقاً ، وذلك اعتماداً على عدم الدقة فى تحديد المفاهيم التى يستخدمها الناس . وقد أدى ذلك إلى فوضى فكرية فى المجتمع حينذاك ، الأمر الذى دفع الفيلسوف سقراط إلى تحمل مسئولية إعادة الأمور إلى نصابها الصحيح والقضاء على هذه الفوضى الفكرية ، وذلك عن طريق تحديد المفاهيم بكل دقة ليفتح الطريق أمام الناس نحو وضوح فكرى يضيء لهم طريق حياتهم ويرشدهم إلى التعرف على حقائق الأشياء دون زيف أو تضليل .

وعلى الرغم من أن مذهب السوفسطائية قد اختفى منذ أكثر من ألفى عام بفضل جهود سقراط ومن جاء بعده من فلاسفة عظام فإن التحدى السوفسطائى سيظل قائماً فى كل العصور ، وسيظل البحث عن الحقيقة هدفاً لكل الفلاسفة والمفكرين إلى آخر الزمان .

وإذا جاز لنا أن نتحدث عن مفهوم الحقيقة فلا يجوز لنا أن نغفل الحديث عن مفهوم الحق ، فهما مفهومان متلازمان . إن الحق ـ كما أخبرنا القرآن الكريم ـ اسم من أسماء الله ـ . وقد جاء ذلك فى قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ [الحج : ٦] . ولكن ليس معنى ذلك أن كل ما عدا الله باطل ، فالكائنات جميعها خلق الله وهذا حق مستمد من الحقيقة الإلهية . ولكن هناك فرقاً جوهرياً عند إطلاق مفهوم الحق على الله أو على الخلق . فالله هو الحق الثابت المطلق الذى لا يتغير ولايتبدل ، أما خَلْقه فيسرى عليه التغير والفناء .

وإذا كان كل شيء فى النهاية إلى زوال ما عدا الله الذى له الخلق والأمر. فإن الإنسان المخلوق (صاحب القدرات المحدودة) لا يستطيع أن يحيط علماً بالخالق ، ولكن علم الخالق لا حدود له : ﴿ **أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ** ﴾ [الملك : ١٤] . وهنا ينبغى على الإنسان أن يعرف حدوده ويعترف بضآلته أمام الخالق ، وهذا يعنى أن عليه أن يشعر بالتواضع بعيداً عن الغرور الجاهل . ويأتى ذلك بطبيعة الحال نتيجة تحديد المفاهيم بكل دقة لإعطاء كل ذى حق حقه ووَضْع كل شيء فى مكانه الصحيح .

obeikandl.com

٢ أزمة النقد فى حياتنا(*)

مفهوم النقد فى حياتنا المعاصرة من المفاهيم التى تتعرض يومياً للكثير من الظلم وإساءة الاستخدام فى مختلف المجالات لدرجة لم تعد خافية على أحد . ولسنا نبالغ إذا قلنا إن النقد ـ وهو آلية ضرورية للتقويم فى جميع المجالات الحياتية ـ قد أصبح فى أزمة ، بل فى محنة .

والنقد بصفة عامة يعنى اختبار شيء ما من جهة قيمته . ويُعد النقد من المهام الأساسية التى مارستها الفلسفة على مر العصور ، حيث تقع على عاتق الفيلسوف فى سعيه الدائب نحو المعرفة مهمة اختبار وسائلنا المعرفية حسية كانت أم عقلية ، للتعرف على مدى قدرتها على التوصل إلى معارف حقيقية أم لا ، وإلى أى مدى تصل قدراتها المعرفية ، ومدى حدود المعرفة الإنسانية بصفة عامة .

ولا يقتصر هذا الاختبار والنقد على المجال النظرى فقط ، بل يشمل المجال العملى أيضاً ، وذلك ببحث الأسس والمعايير التى تحدد سلوك الإنسان . ويتضح من ذلك كله أن النقد يُعد أداة ضرورية للتقويم المتواصل فى مختلف المجالات النظرية والعملية .

ولا شك فى أن هذا النقد الفلسفى لوسائلنا المعرفية ومناهجنا العقلية وقيمنا الأخلاقية من شأنه ـ إذا أُحسِن توظيفه ـ أن ينير الطريق أمام كل من

---

* نشر بصحيفة أخبار اليوم فى ٩/٨/٢٠٠٨م .

يتصدى لممارسة النقد فى أى مجال آخر ، وليس فى المجال الفلسفى فقط . ولعل أول درس يستخلصه الإنسان من ذلك كله هو أن الفكر الإنسانى فى مختلف مجالاته نسبى وقابل للأخذ والرد . ولنا هنا عبرة بما أُثِر عن الإمام الشافعى فى قوله : **" رأينا صواب يحتمل الخطأ ورأى غيرنا خطأ يحتمل الصواب "** .

ومن ناحية أخرى فإن هناك أمراً مهماً يُعد من البدهيات التى لا يجوز أن تغيب عن الأذهان وهو ضرورة امتلاك من يمارس النقد فى أى مجال من المجالات للأدوات الضرورية للنقد ، وأن يقتصر نقده على المجال الذى يحسنه ، وأن تكون معرفته بالموضوع الذى يتعرض لنقده معرفة شاملة وعميقة ، وأن يدرك أن النقد لا يعنى مجرد إظهار السلبيات ، وإنما يهتم بنفس القدر بإظهار الإيجابيات .

وهذا هو شأن الناقد الذى يحترم نفسه ويحترم عقول الآخرين . ومن هنا يكون لنقده معنى وقيمة ، ويُعد إسهاماً إيجابياً للتصويب والتقويم من أجل الوصول إلى بناء الحياة على نحو سليم . وهذا النقد مطلوب ، بل هو ضرورى من أجل التعاون على الوصول بمجتمعنا إلى ما نريده له من تقدم ورقى فى مختلف المجالات ، فالنقد على هذا النحو يُعد تفاعلاً إيجابياً مع ما هو مطروح من آراء وتصورات أو خطط ومشروعات أو ما شاكل ذلك .

ومن هنا يجب أن يقابل بالتجاوب المطلوب من الجانب الآخر . فقد تخفى بعض الجوانب على صاحب الرأى أو العمل فيأتى النقد ليقوّم أو ليضيف . فالتفاعل هنا يُعد إضافة ضرورية إما لتصويب الفكرة أو للإضافة إليها . وهذه قضية فى غاية الأهمية . فالأمر إذن ليس حرباً بين الجانبين ،

ولا يجوز لصاحب الرأى الذى يخضع للنقد أن تأخذه العزة بالإثم . فكلنا خطاؤون ، وكلنا يستفيد من الآخر ، وفى النهاية يكمل بعضنا بعضاً من أجل تحقيق الأهداف المشتركة التى تسهم فى تطوير المجتمع وتطوير الأداء فيه فى جميع المجالات . ومن المأثور عن عمر بن الخطاب فى هذا الصدد قوله : "**رحم الله امرءا أهدى إلىّ عيوبى**" وقوله أيضاً : "**رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه**".[1]

وغنى عن البيان أن نشير إلى أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين النقد وحركة الحياة . فالنقد لا يحدث فى فراغ وإنما ينبغى أن يتفاعل مع نبض الحياة فى المجتمع ، وإلا فإنه يعزل نفسه ويصبح مثل صرخة فى واد أو نفخة فى رماد لا أثر لها ولا تأثير . وهذا يعنى أن كل جهد نقدى ينبغى أن يضع فى اعتباره أولوية أولى تتمثل فى الإسهام الإيجابى فى تقدم المجتمع والارتقاء به دون أن يتنازل فى الوقت نفسه عن القواعد العلمية التى تحكم حركة النقد.

ولكننا عندما نتأمل واقع النقد فى حياتنا المعاصرة على مختلف المستويات فإننا نجد صورة أخرى مختلفة تماماً عما ينبغى أن يكون . فهناك كثيرون لا يفرقون بين النقد الموضوعى والهجوم والتجريح الشخصى لصاحب الرأى أو الفكرة ، كما أن هناك من يتصدى للنقد بنظرة متعالية معتقداً أنه وحده الذى يفهم ويدرك الصواب والخطأ ، وأن هؤلاء الذين

١ـ أورده القرطبى فى تفسيره وعزاه لعمر بن عبدالعزيز أن ابنه اشترى خاتماً بألف درهم فكتب إليه : إنه بلغنى أنك اشتريت خاتماً بألف درهم فبعه وأطعم منه ألف جائع واشتر خاتماً من حديد بدرهم واكتب عليه "رحم الله امرأ عرف قدر نفسه" وكذلك ذكره الشوكانى فى فيض القدير (٤/٣٨) والمستطرف (١/٢٦٧) .

يقوم بنقدهم لا يفهمون ولا يدركون ، وإذا كانوا فى موقع المسئولية فإنهم ليسوا أهلاً لها .

وهناك من يسيء إلى مفهوم النقد متعللاً بحرية التعبير التى يجب أن تكون مكفولة للجميع . وليس هناك فى حقيقة الأمر خلاف على حماية حق حرية التعبير ، فهو حق من حقوق الإنسان الذى لا يجوز المساس به . ولكن إساءة استخدام هذا الحق هو الأمر المرفوض . فحرية التعبير لا يجوز أن تتحول إلى حرية الإهانة للآخرين والافتراء عليهم كذباً وبهتاناً . فإذا كان النقد يتحرى البحث عن الحقيقة فإن هناك من يتحرى البحث عن الإثارة وتصيُّد الأخطاء وافتعال المعارك دون مراعاة لحقوق الآخرين وكرامتهم . وكم من الجرائم ترتكب باسم حرية التعبير ..!

ومن هنا فإننا فى حاجة ماسة إلى تحديد المفاهيم وضبط الحدود بين ما هو حق مشروع وما هو اعتداء على حقوق الآخرين . فالإنسان لا يعيش وحده يتصرف كما يحلو له وإنما يعيش مع الآخرين الذين لهم ذات الحقوق. وإذا كانت القاعدة العامة أنه **" لا ضرر ولا ضرار"**[1] ، فإن تعاملنا مع الآخرين ينبغى أن يكون قائماً على أساس من الاحترام المتبادل .

وإذا كنت أحرص كل الحرص على الحفاظ على حقوقى فإننى مطالب بنفس القدر بالحفاظ على حقوق الآخرين والدفاع عنها . وهذا هو شأن كل مجتمع متحضر تصان فيه الحقوق وتحترم فيه الحريات لجميع المواطنين على السواء.

١ـ حديث النبى ﷺ أخرجه ابن ماجه بسند صحيح (حديث ٢٣٣٢) من حديث ابن عباس . و كذا أحمد فى مسنده (حديث ٢٧٩١) .

والخروج عن الموضوعية فى النقد واللجوء إلى الهدم فى كل شيء مادى أو معنوى أمر سهل لا يحتاج إلى عبقريات ، وإنما الأمر الصعب هو النقد الموضوعى المبنى على أسس متينة ، والذى لا يقدر عليه إلا أصحاب العقول الراجحة . وقد أصبح مثل هذا النقد ـ للأسف الشديد ـ عملة نادرة . ومن هنا دخل ميدان النقد كل من هب ودب ، وأصبح الأمر كلاً مباحاً لمن يعرف ومن لا يعرف ، وقد فتح ذلك الباب واسعاً أمام انتشار التفكير اللاعقلى .

وقد أدى ذلك بدوره إلى الخلل الواضح فى مختلف جوانب حياتنا على مستوى الفكر أو العمل . ويتجلى ذلك بوضوح فى مجالات الفكر الدينى والسياسى والاجتماعى والأدبى .. إلخ ، ويُعد طغيان النزعة اللاعقلية على حياتنا المعاصرة أمراً كارثياً بالنسبة للمجتمع ، ويشكل عقبة كأداء فى سبيل تقدمه ونهضته .

وعندما نفكر فى الجهود الرائعة التى بذلها المصلحون الكبار والمجددون العظام فى بلادنا على مدى القرنين الماضيين نشعر بالحيرة لما نراه من ثمار متواضعة ، وفى أحيان كثيرة ردة وتراجع عما تحقق على أرض الواقع . ويرجع ذلك ـ كما أشرنا ـ إلى طغيان النزعة اللاعقلية والفكر المتخلف الذى يشد المجتمع إلى الوراء كلما خطا خطوة إلى الأمام .

ولكننا مع ذلك لم نفقد الأمل ولا يجوز لنا أن نصاب بالإحباط ، وسنظل رغم كل التحديات نتشبث بالأمل فى استعادة الدور الفاعل للعقل الإنسانى وتمكينه من أداء هذا الدور كاملاً فى الحياة . ومن شأن

ذلك أن يصحح الأوضاع ويقضى على الغثاء الفكرى الذى تفشّى كالوباء فى مختلف جوانب الحياة وكان له أثره فى تدهور السلوكيات فى هذا المجتمع.

ولا شك فى أن المثقفين مسئولون قبل غيرهم عن البحث عن السبيل الأفضل للخروج من هذه الأزمة التى يعانيها المجتمع على مختلف المستويات . فهى فى النهاية ليست مجرد أزمة نقد ، بل أزمة مجتمع . ونحن مسئولون بشكل أو بآخر عن هذه الأزمة ، وبالتالى مسئولون عن البحث عن سبيل للخروج منها .

obeikandl.com

٣ التيار النقدى فى الفلسفة الإسلامية(*)

يذهب " أوبرمان" ، وهو أحد الباحثين النمساويين الذين توفروا على دراسة فكر أبى حامد الغزالى ، إلى القول بأن الغزالى يُعد " **كانْت الفلسفة الإسلامية** " ، وذلك فى دراسته المستفيضة عن الغزالى التى نُشرت بالألمانية عام ١٩٢١م تحت عنوان : " الذاتية الفلسفية والدينية للغزالى " . ويقصد أوبرمان بذلك أنه إذا كان الفيلسوف الألمانى الشهير "كانت Kant" هو مؤسس التيار النقدى فى الفلسفة الأوروبية فى العصر الحديث فإن الغزالى هو مؤسس التيار النقدى فى الفلسفة الإسلامية .

ولقد كان الغزالى ، الذى توفى أوائل العقد الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى ، صاحب عقلية متوقدة ، ومتمردة فكرياً على كل التيارات الفكرية التى كانت سائدة آنذاك . وقد اتخذ فى نقده لها جميعاً منهجاً مغايراً لمناهج عصره ، وهو الشك المنهجى ، وهو ذات المنهج الذى اتخذه أيضاً أبوالفلسفة الحديثة ديكارت بعد الغزالى بأكثر من خمسة قرون .

والفرق بين الفيلسوفين فى هذا الصدد هو أن الغزالى قد عرض هذا المنهج فى صفحات قليلة فى حين أن ديكارت قد أفرد لذلك كتابه المعروف "**التأملات فى الفلسفة الأولى**" . وقد فصَّلنا القول فى هذا الموضوع فى دراسة لنا منشورة بالألمانية والعربية .

---

* نشر بصحيفة الأهرام فى ٢٨ / ١ / ٢٠٠٩م .

وقد احتفى باحثون غربيون كثيرون بفكر الغزالى ودرسوه من جوانب عديدة وقدروه حق قدره بوصفه مفكراً على درجة عالية من الفكر الدينى والفلسفى على السواء . ولكن الباحثين العرب كان لهم رأى آخر . فالغالبية من هؤلاء الباحثين أخرجوا الغزالى من دائرة الفلاسفة وحمّلوه مسئولية انهيار الفكر الفلسفى فى العالم الإسلامى ، واتهموه بأنه كان السبب فى التراجع الحضارى الذى شهدته الأمة الإسلامية ولا تزال تعيشه حتى اليوم .

وحقيقة الأمر أن هذه نظرة سطحية تعتمد على قراءات غير صحيحة لأفكار الغزالى . ولكن شائعة انهيار الحضارة الإسلامية بسبب فكر الغزالى انتشرت فى أوساط الباحثين العرب وانتقلت من جيل إلى آخر دون فحص أو تمحيص وأصبحت تتردد فى كتابات الكثيرين على أنها من المسلّمات .

إن المعروف أن الغزالى قد ألف كتاباً بعنوان **"تهافت الفلاسفة"** تناول فيه بالنقد أفكار الفلاسفة السابقين عليه وبخاصة الفارابى وابن سينا . والنقد الفلسفى أمر مطلوب ، ولا توجد مسلّمات أو **" تابوهات "** فى الفكر الفلسفى لا يجوز الاقتراب منها ، فالفكر الفلسفى فكر متطور . وليس فكراً جامداً . والبناء الفلسفى بناء تشترك فيه الأجيال جيلاً بعد جيل . والكلمة الأخيرة فى الفلسفة لم يقلها جيل بعينه ولن تكون حكراً على جيل من الأجيال أو أمة من الأمم .

ولم يكن الغزالى بدعاً فى نقده لفلسفة السابقين عليه . فتاريخ الفلسفة يبين لنا أن كثيرين من أقطاب الفلسفة كانوا ناقدين لفلسفات الفلاسفة السابقين عليهم . ومن بين أمثلة كثيرة نخص بالذكر أبا الفلسفة

الحديثة " ديكارت " ، وأعظم فلاسفة العصر الحديث فى أوروبا الفيلسوف الألمانى " كانت " . وقد فتح هذا النقد الباب أمام ثراء فلسفى ومناقشات مثمرة كان لها أثرها البالغ فى تحريك الفكر الفلسفى وتطويره فى أوروبا .

وكان يمكن أن يكون الحال كذلك فى الفكر الفلسفى الإسلامى ، وقد حدث بالفعل أن جاء ابن رشد ـ الذى وُلِد بعد وفاة الغزالى بخمسة عشر عاماً ـ وألف كتاباً ينقض فيه آراء الغزالى فى كتاب له بعنوان " **تهافت التهافت** " . وبذلك انفتح الباب أمام مناقشات فلسفية جادة وإن اتسمت أحياناً بالحدة . وإذا كانت هذه المناقشات قد توقفت ولم يُكتب لها الاستمرار كما حدث فى الفكر الغربى ، فهل يمكن تحميل الغزالى مسئولية هذا التوقف ، ومسئولية انهيار الحضارة الإسلامية ؟ أليس ذلك يعد تبسيطاً غير علمى لمشكلة حضارية معقدة لها أسباب عديدة ؟

لقد رفض الغزالى التقليد بمختلف صوره ، وأفسح المجال للعقل مؤكداً دوره فى كل شئون الفكر بما فى ذلك الفكر الدينى ، وذهب إلى القول بأن النصوص الدينية إذا تعارضت مع العقل فإنه يتحتم تأويلها حتى تتفق مع العقل . وفى ذلك يقول : " **فإن لنا معياراً فى التأويل وهو أن ما دل نظر العقل ودليله على بطلان ظاهره علمنا ضرورة أن المراد غير ذلك** " [1] .

وفى رفضه للتقليد وتعويله على العقل يقول : " **فاعلم يا أخى أنك متى كنت ذاهباً إلى تعرُّف الحق بالرجال من غير أن تتكل على بصيرتك**

١ـ فضائح الباطنية للغزالى ، ص ٥٣ ، القاهرة ١٩٦٤ .

فقد ضل سعيك ، فإن العالم من الرجال إنما هو كالشمس أو كالسراج يعطى الضوء ، ثم انظر ببصرك ، فإن كنت أعمى فما يغنى عنك السراج والشمس . فمن عوَّل على التقليد هلك هلاكاً مطلقاً " [1].

وقد عاب الغزالى على فريق من المتصوفة رفضهم للعقل والمعقول ، مبيناً لهم أن الدين لا يُعرف إلا عن طريق العقل ، وأن رفضهم للعقل يوقعهم فى التناقض . فالعقل عند الغزالى : **" أنموذج من نور الله "** كما يصفه فى موضع آخر بأنه : **" الفطرة الغريزية والنور الأصلى الذى به يدرك الإنسان حقائق الأشياء "** .

والغزالى فى تصوفه لم يتخل أبداً عن التأكيد على دور العقل الذى أعطى له الحق فى الحكم على التجارب الصوفية رافضاً منها ما يتعارض مع مقررات العقل . وفى تقديره للعقل ومبادئه نراه يهتم اهتماماً فائقاً بالمنطق بوصفه علم المبادىء العقلية . وقد ألف فيه عدة مؤلفات منها : معيار العلم، ومحك النظر ، والقسطاس المستقيم ، بالإضافة إلى المقدمة المستفيضة التى كتبها فى بداية كتابه **" المستصفى من علم الأصول "** مؤكداً أن المنطق يعد مقدمة ضرورية لكل العلوم .

ولنتأمل ما يقوله الغزالى فى نهاية كتابه ميزان العمل ـ وهو كتاب فى التصوف والأخلاق ـ حيث يقول : **" وإذا لم يكن فى مجارى هذه الكلمات**

١ـ معراج السالكين للغزالى ، ص ٢٩٨ ، وما بعدها (ضمن مجموعة : الرسائل الفرائد) ، مكتبة الجندى .

إلا ما يشكك فى اعتقادك الموروث لتنتدب للطلب (أى للبحث) فناهيك به نفعاً ، فالشكوك هى الموصلة إلى الحق . فمن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال " [1].

ومن بين الموضوعات التى تناولها الغزالى بالنقد موضوع العلاقة السببية التى ردها إلى مجرد اقتران زمنى معتبراً استمرار العادة بها مرة بعد أخرى يرسخ فى أذهاننا جريانها على وفق العادة الماضية ترسخاً لا تنفك عنه . وقد شرح الغزالى وجهة نظره بالتفصيل فى كتابه **"تهافت الفلاسفة"**.

وفى نقد ابن رشد للغزالى فى هذا الصدد اتهمه بأنه بذلك قد هدم العلم . وليس هناك بأس من أن ينقد ابن رشد الغزالى ويعارضه ، ويتبنى وجهة نظر مضادة ، فهذا أمر ليس غريباً على الفلسفة والفلاسفة . ولكن الأمر الغريب أن يتخذ بعض الباحثين العرب من هذا النقد الرشدى ذريعة لاتهام الغزالى بالعداء للعلم وتحميله مسئولية تخلف المسلمين علمياً حتى اليوم.

وفى المقابل يقول العالم الفرنسى رينان : **"إن هيوم (وهو فيلسوف إنجليزى توفى عام ١٧٧٦م) لم يقل فى نقد مبدأ العلية أكثر مما قاله الغزالى"**. ومع ذلك لم يتهم أحد هيوم بمثل ما اتهم به الغزالى ، بل إن الفيلسوف العظيم " كانت " قال عن نقد هيوم لمبدأ السببية إنه كان السبب فى إيقاظه من سباته الاعتقادى .

ومن بين الذين أنصفوا الغزالى فى الحكم على رأيه فى السببية المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه عن ابن رشد حيث يقول :

١ـ ميزان العمل للغزالى ، ص ٤٠٩ ، القاهرة ١٩٦٤ .

"إن رأى الغزالى فى السببية هو رأى يوافقه عليه العلم الحديث الذى يكتفى بوصف الظواهر ولا يدعى استقصاء عللها " . وليس من شأنه أن يعطل العقل عن البحث كما فهم بعض الجاهلين بقدره وأقدارهم .

إن من الظلم البيِّن أن نحمِّل مفكراً واحداً مسئولية انهيار حضارة بأكملها إلا إذا كانت هذه الحضارة مثل بيت العنكبوت إذا هبَّت عليه عاصفة هدمته وجعلته نهباً للرياح . والحضارة الإسلامية لم تكن كذلك أبداً. ويُحسب للغزالى أنه أول من اتخذ الشك المنهجى طريقاً للتوصل إلى الحقائق ، وأن هذا المنهج هو ذات المنهج الذى استحق به ديكارت لقب أبى الفلسفة الحديثة ، كما يحسب للغزالى أنه مؤسس التيار النقدى فى الفلسفة الإسلامية بصرف النظر عن اتفاقنا أو اختلافنا معه فى الرأى .

وأعتقد أنه قد آن الأوان لأن نعيد النظر فى حكمنا على هذا الفيلسوف اعتماداً على إنتاجه الغزير ، وليس على كتاب **" تهافت الفلاسفة "** فقط . ومن ناحية أخرى فإن علينا أن ننظر إلى الجوانب الإيجابية فى أفكار فلاسفتنا ومفكرينا ونعرضها لأجيالنا الجديدة لتستفيد منها وتفيد بها الحياة ، بدلاً من أن نهيل عليهم التراب منكرين ما قدموه من عطاء فكرى لا يزال جديراً بالحياة والتأثير الإيجابى فى مسار الفكر الفلسفى الإسلامى لتجديد حيويته واستعادة نضارته من أجل خير الأمة وتقدمها وازدهارها .

٤ الدور التنويرى لفلسفة ابن رشد(*)

لقد لخص أحد المفكرين المعاصرين حال الأمة الإسلامية فى العصر الحاضر فى عبارة قصيرة يقول فيها : إنها " أمة حائرة فى عالم محير" . وحقيقة الأمر أن من يتأمل أوضاع عالمنا العربى الإسلامى تستبد به الدهشة لما يسود هذا الجزء من العالم من حيرة وارتباك يسيطران على خطواته ، فهناك تيارات فكرية ودينية تحاول أن تشد المجتمعات الإسلامية إلى الوراء متجاهلة مستجدات العصر وما طرأ على العالم من تطورات جوهرية ، وهناك فى الوقت نفسه تيارات أخرى تحاول أن تجذبها من وهدتها بقوة بطريقة قد تفقدها توازنها وتقتلع معها جذورها ، بل وتُفقدها هويتها .

وليس هناك من شك فى أن عالمنا العربى والإسلامى فى أشد الحاجة إلى حركة تنويرية شاملة فى محاولة جادة لإخراجه من حالة الجمود والتخلف التى تسيطر عليه منذ مدة طويلة ، وليس هناك من شك أيضاً فى أن هذا أمر يتطلب بذل جهود كبيرة لتغيير العقلية العربية الإسلامية التى تتلمس طريقها وسط موجات من الاضطراب الفكرى والدينى الذى يخيم على مجتمعاتنا الإسلامية .

وإذا كان الكثيرون من مفكرينا ينادون دائماً بالاتجاه نحو المستقبل والاستفادة من تجارب مَنْ سبقونا فى ميادين التقدم وعدم الالتفات إلى

---

* نشر بصحيفة أخبار اليوم فى ٩ / ٥ / ٢٠٠٩م .

الماضى ، فإن هذا لا يمنع من أن نلتفت فى الوقت نفسه إلى بعض النماذج المضيئة فى تاريخ حضارتنا الإسلامية والتى استطاعت بإشعاعها الفكرى وتوهجها العقلى أن تفتح فى الماضى آفاقاً واسعة للتنوير .

ومن الأمثلة البارزة فى هذا الصدد الفيلسوف العظيم ابن رشد (١١٣٦ ـ ١١٩٨م) ، فقد كانت له رؤية واضحة المعالم متمثلة فيما قدمه لنا منذ أكثر من ثمانية قرون من نموذج تنويرى لا يزال مصدر إلهام لكل الباحثين عن التنوير فى كل العصور . وابن رشد ـ الذى جاهد طوال حياته فى سبيل تمكين العقل من أداء دوره الفاعل فى حركة الحياة والأخذ بأسباب العلم بجميع جوانبه ، والاستفادة من تجارب الآخرين ـ يُعد ـ بلا جدال ـ زعيم التنويريين فى الشرق وفى الغرب على السواء .

وقد انتشرت أفكاره فى أوروبا فى العصر الوسيط وتم الاحتفاء بها وترجمتها والاستفادة منها . وقد مهدت هذه الأفكار الطريق لعصر النهضة الأوروبية . ومن المفارقات الغريبة أن استفادة أوروبا من الفكر التنويرى لابن رشد كانت أكثر من استفادة العالم العربى من هذا الفكر.

فقد تلقى ابن رشد جزاء سنمار على جهوده التنويرية عندما تعرَّض لوشاية خبيثة من بعض علماء الكلام الجامدين فى ذلك العصر تتهمه بالزندقة ، الأمر الذى أثار غضب الخليفة عليه وتم نفيه وإحراق كتبه . وقد كانت هذه الصدمة العنيفة لابن رشد هى بداية النهاية لمشواره الفلسفى . فعلى الرغم من أن الخليفة قد عفا عنه بعد ذلك ، وعاد ابن رشد إلى مراكش فإنه لم يكن قد تعافى بعد من هول الصدمة الظالمة وتوفى بعد فترة قصيرة .

ومصطلح التنوير وإن كان قد جاء متأخراً عن عصر ابن رشد بعدة قرون ، إلا أن فكر ابن رشد يعد تعبيراً عما يقصد بهذا المصطلح الذى هو فى العربية مشتق من النور الذى هو ضد الظلام ، وضد الجهل الذى هو شكل من أشكال الظلام .

وتنوير ابن رشد يقوم على دعامتين أساسيتين هما العقل والدين وليس على دعامة واحدة ، كما يحلو للبعض الترويج لذلك . وكما أن الطائر لا يستطيع أن يطير بجناح واحد فكذلك تنوير ابن رشد لا يجوز أن يُفهم فهماً أحادياً . فالتنوير العقلى مطلوب ، والتنوير الدينى مطلوب أيضاً فى الوقت نفسه ، وبخاصة فى عالمنا الإسلامى المعاصر الذى اختلطت فيه المفاهيم الدينية واختلت فيه الموازين الفكرية .

وفى سياق مماثل يقول الشيخ محمد عبده : " العقل يجب أن يحكم كما يحكم الدين ، فالدين عُرِف بالعقل ، ولابد من اجتهاد يعتمد على الدين والعقل معاً حتى نستطيع أن نواجه المسائل الجديدة فى المدنية الجديدة ونقتبس منها ما يفيدنا " [1].

وقد كان ابن رشد حريصاً كل الحرص على الاستفادة من أفكار الآخرين ما دامت هذه الأفكار ستفيدنا فى مسيرتنا الحضارية لدرجة جعلته يعتبر الاطلاع على ما لدى الآخرين والإفادة منها من الواجبات الشرعية .

ولكن ابن رشد ـ صاحب الفكر الواعى المستنير ـ لم يفهم الدين فهماً جامداً ، وإنما فهم الدين على أنه نصير للعقل . ومن هنا فلا يوجد

١ـ زعماء الإصلاح للأستاذ أحمد أمين ، ص ٣٣٧ .

بينهما ـ فى رأيه ـ تناقض على الإطلاق . ويصور ابن رشد العلاقة بينهما على أنها علاقة وفاق لا تشوبه شائبة ، وإذا جاء الدين بما يتناقض مع العقل وجب تأويل النص الدينى حتى يتوافق مع العقل .

ويتفق ابن رشد فى هذا الصدد مع الغزالى الذى يقول : " فإن لنا معياراً فى التأويل وهو أن ما دل نظر العقل ودليله على بطلان ظاهره (أى ظاهر النص) علمنا ضرورةً أن المراد غير ذلك " .

ويقول ابن رشد مصوِّراً علاقة العقل أو الفلسفة القائمة على العقل بالدين : " الحكمة (الفلسفة) صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة .. وهما المصطحبتان بالطبع المتحابتان بالجوهر والغريزة "[1] . كما يقول أيضاً : "فإنَّا معشر المسلمين نعلم على القطع أنه لا يؤدى النظر البرهانى إلى مخالفة ما ورد به الشرع ، فإن الحق لا يضاد الحق بل يوافقه ويشهد له "[2].

ولا يفوت ابن رشد أن ينتقد الفكر الدينى الذى كان سائداً فى عصره من جانب مَنْ يسميهم بـ " الأصدقاء الجهال " ، وما أكثرهم فى عصرنا أيضاً . ويعبِّر عما يشعر به من الحزن والألم بسبب " ما تخلل هذه الشريعة من الأهواء الفاسدة والاعتقادات المحرفة " . وهذا هو حال الكثيرين من أبناء الأمة اليوم الذين لا يزالون يفسرون الدين على هواهم ويغرسون فى عقول أبنائنا " اعتقادات محرفة" أدت بهم إلى طريق مسدود .

إن ابن رشد – بعد ما يزيد على ثمانمائة عام على رحيله ـ كأنه لا يزال حياً بيننا يشخص أدواء مجتمعاتنا ويصف لها العلاج الناجع ، فالذى يراقب

١ـ فصل المقال لابن رشد (ضمن كتاب : فلسفة ابن رشد) ص ٣٨ . بيروت ١٩٨٢م .
٢ـ المرجع السابق ، ص ١٩ .

أحوال مجتمعنا يجد خللاً فى الفهم الدينى لدى قطاعات عريضة وبخاصة بين الشباب ، كما يجد أيضاً كثيراً من الخرافات والأوهام لا تزال تعشش فى عقول الكثيرين من أبناء هذه الأمة .

ومنهج ابن رشد التنويرى هو المنهج الملائم لمجتمعاتنا الإسلامية المعاصرة للأخذ بيدها نحو تحكيم العقل فى كل أمور حياتنا وإفساح المجال للفهم الصحيح للدين ومقاصده بعيداً عن الجمود الفكرى والانغلاق الدينى .

وعلى الرغم من وضوح فكر ابن رشد الداعى إلى التنوير على المستويين العقلى والدينى فإن هناك بعض الاتجاهات الفكرية فى الماضى وفى الحاضر أيضاً قد تحولت بفكر ابن رشد إلى غير ما كان يدعو إليه . ومن بين المدارس الفكرية التى تشكلت لهذا الغرض فى العصر الوسيط فى أوروبا مدرسة تُعرف باسم " الرشدية اللاتينية " تبنت أفكار ابن رشد العقلية واتخذت منها سلاحاً لمحاربة الفكر الجامد والمتسلط للكنيسة حينذاك .

وقد فهمت الرشدية اللاتينية تنوير ابن رشد فهماً أحادياً . فقد أخذت من فكره الجانب العقلى وتركت الجانب الدينى لأنها لم تكن فى حاجة إليه فى حربها مع الكنيسة ، وصوَّرت هذه المدرسة ابن رشد على أنه يقوم بالفصل التام بين الفلسفة والدين ، فهما فى فهم الرشدية اللاتينية على طرفى نقيض . وهذا ما لم يقل به ابن رشد على الإطلاق .

وقد سار الكثيرون من المشتغلين بالفلسفة فى عالمنا العربى المعاصر وراء هذه المدرسة الرشدية اللاتينية دون الرجوع إلى فكر ابن رشد نفسه

الذى سطره فى كتبه التى خلفها وراءه للأجيال ، واتهم من الجانبين بالقول بالحقيقة المزدوجة التى تعنى أن ما هو حق من الناحية الفلسفية قد يكون باطلاً من الناحية الدينية والعكس صحيح أيضاً . ولا يزال هذا الاتهام يتردد فى كتابات كثير من الباحثين فى الشرق وفى الغرب حتى اليوم .

ولا شك فى أن ابن رشد قد أكد على دور العقل وضرورة التمسك به ، ولكنه فى الوقت نفسه لم يقف موقفاً معادياً للدين ، ولم يكن ذلك أمراً متصوراً من ابن رشد ، فقد كان قاضياً فى قرطبة وإشبيلية ، وقاضى القضاة فى قرطبة فيما بعد ، وترك لنا كتاباً يُعَد من أحسن ما كُتِب فى الفقه الإسلامى وهو " بداية المجتهد ونهاية المقتصد " .

وهذا هو الجانب المنسى من فكر ابن رشد . فالذين يتمسحون بفكره ، على غرار ما فعلته الرشدية اللاتينية ، لا يريدون أن يعرفوا شيئاً عن هذا الجانب وعليهم أن يعيدوا قراءة ابن رشد قراءة موضوعية غير مثقلة بأحكام مسبقة إذا أرادوا إنصاف هذا الفيلسوف العظيم المفترى عليه .

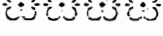

٥ مناهج العلوم وفلسفتها من منظور إسلامى (*)

تمهيد :

هناك مقولة قديمة تقول : " الفلسفة بنت الدين وأم العلوم " . وتعبر هذه المقولة تعبيراً صادقاً عن مدى الصلة الوثيقة التى تربط بين العلوم والمعارف الإنسانية التى تمثل حلقات متصلة تلبى حاجات وتطلعات الإنسان . فكما هو فى حاجة إلى الدين فإنه أيضاً فى حاجة إلى الفلسفة وسائر العلوم . ومن هنا فإن افتعال خصومة بين هذه العناصر أمر لا مبرر له وليس فى مصلحة الإنسان ، ولا يعبر عن حقيقة جوهره .

صحيح أننا نعيش الآن عصر العلم ، عصر ثورة المعلومات والاتصالات والطفرة التكنولوجية الكبرى . ولكن هذا لا يعنى بأى حال من الأحوال أن الإنسان يمكن أن يستغنى تماماً عن الدين وعن سائر العلوم العقلية لصالح العلوم الطبيعية .

وصحيح أيضاً أن التطورات العلمية الهائلة قد تصيب الإنسان بالغرور وتدفعه إلى الاعتقاد بأن التقدم المادى هو كل شىء ، ولكنه فى نهاية الأمر يجد نفسه مدفوعاً إلى الحنين إلى الاعتقاد وإلى البحث عن شيء يملأ فراغ نفسه

---

* محاضرة ألقيت فى الجلسة الافتتاحية للمؤتمر الدولى الثانى عشر لقسم الفلسفة الإسلامية، كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ، ٢٤ / ٤ / ٢٠٠٧م .

ويشعره بالاطمئنان . وهذا الحنين فى حد ذاته يدل على أن هناك حاجات نفسية وجدانية وحاجات عقلية لا يجوز تجاهلها إذا أراد الإنسان لنفسه السعادة فى هذه الحياة . ويذكّرنى ذلك بكتاب كنا نقرؤه ونحن طلاب فى المرحلة الثانوية بعنوان "الله يتجلى فى عصر العلم " لمجموعة من أبرز العلماء فى مختلف العلوم فى الغرب أجمعوا على أن إنجازاتهم العلمية قادتهم إلى الإيمان .

العلم والحضارة :

والمتتبع لنشأة الحضارات الإنسانية يجد أنها قامت على أساس من الدين والعلم معاً . ومن هنا اهتم الوحى القرآنى فى أول ما نزل منه بلفت الأنظار والعقول إلى مفاتيح الحضارة قبل أن يتحدث عن أى شىء آخر يتعلق بالعقيدة وأمور الآخرة . فكانت الآيات الخمس الأولى من سورة العلق التى تأمر بالقراءة مرتين وتشيد بالعلم وبالقلم الذى هو وسيلة تدوين العلم وبالإنسان حامل هذا العلم . وكان هذا الوحى عوداً على بدء . فقبل أن يهبط الله آدم إلى الأرض علّمه الأسماء كلها ، أى أعطاه مفاتيح الحضارة التى يستطيع من خلالها أن يلبى الأمر الإلهى بإعمار الأرض فى قوله تعالى : ﴿ **هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** ﴾ [هود : ٦١] . أى طلب منكم عمارتها وصنع الحضارة فيها .

ولتأكيد ذلك جعل الإسلام طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وقد أدرك المسلمون الأوائل كل هذه المعانى وساروا على نهجها فكانت لهم إسهاماتهم التى لا تُنسى فى تقدم العلوم وازدهار الحضارة ، وإذا كانت الحضارة لا تقوم إلا بالعلم ، فإن العلم لا يقوم إلا بمنهج . وإذا كان العلم فريضة فإن منهج العلم فريضة أيضاً ويعد جزءاً لا يتجزأ من العلم .

ومناهج العلوم تختلف باختلاف موضوعاتها من علم إلى آخر . وقد أسهم أسلافنا إسهامات جادة فى تقدم العلوم ومناهجها . وكان لابد فى هذا الصدد من تحديد الحدود بين العلوم المختلفة حتى لا تختلط الأمور . ومن هنا كان "إحصاء العلوم" للفارابى بوصفه أول محاولة جادة فى هذا الصدد استفاد منها الأوروبيون كثيراً فى العصور الوسطى حتى بداية القرن السادس عشر .

وقد تحدث القاضى صاعد بن أحمد الأندلسى عن هذا الكتاب فقال : "وله كتاب شريف فى إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها ، ولم يُسبق إليه ولاذهب أحد مذهبه فيه ، ولا يستغنى طلاب العلوم كلها عن الاهتداء به وتقديم النظر فيه" . [1]

والعلم – كما نعرف من تراثنا – رحم بين أهله وتواصل بين الأجيال والحضارات ، وكل جيل يضيف إليه شيئاً جديداً يمهد به السبيل لمن يجيء بعده.

ولن يكتمل بناء صرح العلم طالما كان هناك إنسان فى هذا الوجود ، فالعلم نسبى وقابل للتطور المستمر . والكلمة الأخيرة فى العلم أو فى الفلسفة لم يقلها جيل بعينه وإلا أصيب الفكر بالجمود وحُكِم عليه بالعقم الأبدى .

ومن أجل ذلك ستظل محاولات التجديد والتطوير والإبداع متواصلة بلا انقطاع طالما كان هناك إنسان فى هذا الوجود . ومهمة اللاحق وفرصته أفضل دائماً من فرصة السابق عليه . وقد أشار إلى ذلك أبو بكر الرازى فى حديثه

١ـ نقلاً عن تقديم المحقق د. عثمان أمين للطبعة الثانية لكتاب إحصاء العلوم .

عن الفلسفة حيث يقول : "اعلم أن كل متأخر من الفلاسفة إذا صرف همته إلى النظر فى الفلسفة وواظب على ذلك ، واجتهد فيه ، وبحث عن الذى اختلفوا فيه لدقته وصعوبته عَلِم عِلْم من تقدمه منهم ، وحفظه واستدرك بفطنته وكثرة بحثه ونظره أشياء أخرى ، لأنه مهر بعلم من تقدمه ، وفطن لفوائد أخرى واستفضلها ، إذ كان البحث والنظر والاجتهاد يوجب الزيادة والفضل "[1].

وما قاله أبو بكر الرازى فى هذا النص عن الفلسفة ينطبق بطبيعة الحال على سائر العلوم . فالعلم قسمة مشتركة بين بنى البشر . وهناك تفاعل مستمر بين الأجيال والحضارات ، وكل جيل يبدأ من حيث انتهى الآخرون ، وكل جيل مدين للجيل السابق عليه بما قدمه من عطاء .

ومن هنا فإنه لا يجوز لأى حضارة أن تدعى لنفسها أنها أنجزت ما أنجزت دون أن تستفيد من غيرها بشكل مباشر أو غير مباشر سواء كان هذا الإنجاز تعديلاً أو تصحيحاً لما قاله السابقون أو إضافة جديدة للبناء العلمى الذى هو ملك للبشرية كلها . فالعقل الإنسانى واحد لدى جميع البشر ، وهو : "أعدل الأشياء قسمة بين الناس" كما يقول ديكارت .

ولا شك فى أن الحضارة الإسلامية قد استفادت من الإنجازات العلمية والفكرية السابقة عليها كما أفادت بدورها الحضارة الأوروبية الحديثة بما قدمته لها من عطاء فى العصور الوسطى عن طريق الترجمات العديدة من خلال المعابر الحضارية فى كل من الأندلس وجزيرة صقلية . وإذا كان الأمر

١ـ مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى للدكتور فرانتز زوزنتل ، ص ١٨٥ ، بيروت ، ١٩٨٠م .

كذلك فإنه لا يوجد مبرر لمحاولة البعض على كلا الجانبين إنكار أو نفى هذا التواصل العلمى والحضارى بين الثقافات .

ويؤكد القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية : ١٣] ، أن السماء والأرض وما بينهما مجال للنظر والبحث العلمى . وختام الآية يبين لنا أن ذلك لن يكون متاحاً إلا لهؤلاء الذين يتفكرون ، أى الذين يستخدمون عقولهم فى البحث والنظر بصرف النظر عن الجنس أو الدين أو العرق أو اللغة . فالمجال مفتوح لكل من لديه استعداد لاستخدام عقله وفكره فيما خُلِق له .

وفى ضوء هذه الآية الكريمة أود أن أطرح سؤالاً عن جدوى ما يُبذل من جهود مشكورة فى مجال أسلمة العلوم لتطوير حياتنا الإسلامية . ألم يكن من الأجدى أن نختصر الطريق ونبدأ من حيث انتهى الآخرون حتى نستطيع أن نلحق بركب التطور العلمى ؟ لقد انطلقت هذه الدعوة منذ أكثر من ربع قرن من الزمان ، فما الذى قدمته للارتقاء بالعلم فى مجالاته المختلفة فى العالم الإسلامى ؟

ولست أنكر أن طرح مثل هذه الأسئلة سيصدم البعض ، ولا أنكر أنى كنت فى سنوات سابقة معجباً بطروحات أسلمة العلوم . ولكنى وجدت – وهذا رأى شخصى – أن من الأفضل أن تُوجَّه هذه الجهود إلى البحث العلمى نفسه وإلى أخلاقيات العلم التى أصبحت الحاجة إليها مُلِحة بعد أن وصلنا إلى مرحلة الاستنساخ البشرى وما قد يجره ذلك من عبث بالجينات البشرية ، وما لذلك كله من آثار بعيدة المدى على حياة الجنس البشرى كله .

ولست أريد بطرح هذه الأسئلة التقليل من شأن أصحاب هذا الاتجاه . ولاأشك فى إخلاصهم ونواياهم الحسنة . فالخلاف فى الرأى لا يفسد للود قضية. وأنا بطبعى أحترم كل الآراء ، ولكن احترام الرأى شىء والقبول به شىء آخر .

وأود فى هذا المقام أن أشير إلى أن جائزة الملك فيصل التى تُمنح سنوياً لعدد من العلماء فى مختلف العلوم على مستوى العالم يكاد ينحصر الفوز بها فى علوم الطب والفيزياء وغيرها فى علماء من الغرب من غير المسلمين ، الأمر الذى يدل على تخلف العلماء المسلمين فى هذه المجالات . فالجائزة إذن تمنح للجدير بها بصرف النظر عن عقيدته أو جنسه أو عِرْقه ، وهذا أمر يُحمد للجائزة وللقائمين عليها .

وهناك نقطة أخرى مهمة أود التطرق إليها تتعلق بالتراث العلمى فى الحضارة الإسلامية . فالعودة إلى هذا التراث وإبرازه لتأكيد الإنجازات الرائعة التى قام بها العلماء المسلمون فى السابق أمر مطلوب ومشكور ، ولكن بشرط أن يكون ذلك فى إطار حدود معينة ، أى فى إطار استعادة الثقة بأنفسنا حتى نستمر فى السير على الدرب . فلسنا أقل فى عقولنا وقدراتنا من السابقين ، ولكننا فى حاجة إلى استعادة هذه الثقة حتى لا نُصاب بمركب النقص إزاء الدول التى سبقتنا فى التقدم العلمى والحضارى ، على الرغم من أن هذه الدول كانت تعيش فى ظلام دامس فى العصور الوسطى فى الوقت الذى كانت فيه الحضارة الإسلامية فى قمة ازدهارها وعطائها .

ومن هنا فإنه لا يجوز لنا أن نضيع الكثير من الوقت والجهد أو الوقوف عند حد اجترار الذكريات أو التغنى بالأمجاد ، فقيمة المرء بما يقدمه من عطاء وليس بما قدمه أسلافه أو كما قال الشاعر ابن الوردى :

لا تقل أَصْلى وفَصْلى أبداً إنما أَصْل الفتى ما قد حصَّل

ورحم الله جمال الدين الأفغانى . فقد زاره المفكر الإسلامى شكيب أرسلان فى الآستانة حينما كان شبه أسير لدى سلطات الخلافة العثمانية ، ودار الحديث حول ما رُوِى من أن العرب قد عبروا المحيط الأطلنطى قديماً واكتشفوا القارة الأمريكية قبل أن يكتشفها كرستوف كولمبوس عام ١٤٩٢م . وقد رد عليه الأفغانى بقوله : "إن الشرقيين كلما أرادوا الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر قالوا : أفلا ترون كيف كان آباؤنا ؟ نعم قد كان آباؤكم رجالاً ، ولكنكم أنتم أولاء كما أنتم ، فلا يليق بكم أن تتذكروا مفاخر آبائكم إلا أن تفعلوا فعلهم" . [1]

ولا شك فى أن التراجع الحضارى فى العالم الإسلامى قد بدأ عندما قنع المسلمون بما فعله الأجداد ، وعندما شاعت مقولات تنشر اليأس فى النفوس تقول بأنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان ، وأنه لم يترك الأول للآخر شيئاً . وشاع ذلك فى كل مجالات العلوم عقلية أو طبيعية أو حتى دينية . ومن هنا خرجنا نحن المسلمين من حلبة السباق وأصبحنا كما هو الحال اليوم فى مؤخرة الرَّكْب .

وهذا ما دفع الشيخ محمد عبده إلى أن يعيب على الفقهاء – على سبيل المثال – دعوتهم الناس إلى تقليدهم والعمل بما جاء فى كتبهم حيث يقول :

" جعل الفقهاء كتبهم هذه ، على علاتها ، أساس الدين ، ولم يخجلوا من قولهم : إنه يجب العلم بما فيها وإن عارض الكتاب والسنة . فانصرفت

١ـ زعماء الإصلاح لأحمد أمين ، ص ١٠٢ .

الأذهان عن القرآن والحديث ، وانحصرت أنظارهم فى كتب الفقهاء على ما فيها من الاختلاف فى الآراء والركاكة "[1].

وقد جر ذلك وراءه موجات من التقليد الممقوت والتعصب الأعمى ، وتم إهمال العقل ومقرراته والعلم وحقائقه فانتشرت الخرافات والأوهام ، وما قصة الشجرة التى زعم أنها تحمل لفظ الجلالة أو صيغة الشهادة ببعيدة عنا . فقد اهتمت بها وسائل الإعلام وانهال الناس من كل صوب وحدب على الشجرة لرؤية المعجزة والتبرك بها . وكل هذه خرافات وأوهام ما أنزل الله بها من سلطان.

فهل يمكن أن يكون هذا المؤتمر وأمثاله من مؤتمرات علمية عديدة فى عالمنا الإسلامى بمثابة حافز يدفع إلى التجديد والإبداع حتى تنتقل الأمة من حالة التراجع الحضارى التى استمرت عدة قرون إلى ما نرجوه لها جميعاً من التقدم والازدهار ؟

إن الأمنيات وحدها لا تصنع شيئاً . فتغيير العقليات هو البداية . وتبدُّل الأحوال لن يسقط علينا من السماء ، فزمن المعجزات قد انتهى منذ وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام . والقانون القرآنى هو الحاكم فى هذا الصدد وهو قانون واضح كل الوضوح لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . يقول القرآن الكريم فى ذلك : ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الرعد : ١١] .

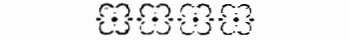

١ـ الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده . ج ٣ ص ١٩٥ . بيروت ١٩٨٠ .

أهم الأعمال العلمية للمؤلف

أولاً : مؤلفات عربية :

١ـ تمهيد للفلسفة (الطبعة الخامسة) ، دار المعارف بالقاهرة .

٢ـ المنهج الفلسفى بين الغزالى وديكارت (الطبعة الرابعة) ، دار المعارف بالقاهرة .

٣ـ الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى ، دار المعارف بالقاهرة . ومكتبة الشروق الدولية ٢٠٠٨م .

٤ـ الدين والفلسفة والتنوير (سلسلة اقرأ) ، دار المعارف بالقاهرة .

٥ـ الدين والحضارة (سلسلة اقرأ) ، دار المعارف بالقاهرة .

٦ـ حقائق إسلامية فى مواجهة حملات التشكيك (سلسلة اقرأ) ، دار المعارف بالقاهرة ، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ومكتبة الشروق الدولية .

٧ـ دراسات فى الفلسفة الحديثة ، دار الفكر العربى .

٨ـ مدخل إلى الفكر الفلسفى (مترجم عن الألمانية) ، دار الفكر العربى .

٩ـ مقدمة فى علم الأخلاق ، دار الفكر العربى .

١٠ـ مقدمة فى الفلسفة الإسلامية ، دار الفكر العربى .

١١ـ الإسلام فى مرآة الفكر الغربى ، دار الفكر العربى .

١٢ـ الإسلام فى عصر العولمة ، مكتبة الشروق الدولية . والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

١٣ـ الحضارة فريضة إسلامية ، مكتبة الشروق الدولية ، ومكتبة الأسرة .

١٤ـ الإسلام وقضايا الحوار ، مكتبة الشروق الدولية ، ومكتبة الأسرة ٢٠٠٧م .

١٥ـ الإسلام والغرب ، مكتبة الشروق الدولية .

١٦ـ هموم الأمة الإسلامية ، دار الرشاد ومكتبة الأسرة .

١٧ـ الإنسان والقيم فى التصور الإسلامى ، دار الرشاد ومكتبة الأسرة .

١٨ـ ثلاث رسائل فى المعرفة للإمام الغزالى (تحقيق ودراسة) مكتبة الأزهر . والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ٢٠٠٩.

١٩ـ الإسلام فى تصورات الغرب ، مكتبة وهبة .

٢٠ـ الإسلام ومشكلات المسلمين فى ألمانيا (محاضرة) ، مكتبة وهبة.

٢١ـ الإسلام وقضايا العصر ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

٢٢ـ من أعلام الفكر الإسلامى الحديث ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٢٣ـ الإسلام وقضايا الإنسان ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٢٤ـ مقاصد الشريعة الإسلامية وضرورات التجديد ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٢٥ـ مفاتيح الحضارة وتحديات العصر ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٢٦ـ الفكر الدينى وقضايا الأمة الإسلامية ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٢٧ـ المسلمون فى مفترق الطرق ، دار الرشاد ، القاهرة ٢٠٠٧م .

٢٨ـ الفكر الدينى وقضايا العصر ، دار الرشاد ، القاهرة ٢٠٠٨م .

٢٩ـ الدين للحياة ، دار الرشاد ، القاهرة ٢٠٠٩م .

ثانياً : مؤلفات باللغات الأجنبية :

١ـ فى اللغة الألمانية :

أربعة كتب هي : "فلسفة الغزالى مع مقارنتها بفلسفة ديكارت" ، "مدخل إلى الإسلام" ، "قضايا حول الإسلام" ، "الإسلام وقضايا الحوار" ، وذلك

بالإضافة إلى اثنى عشر بحثاً منشورة فى ألمانيا والنمسا ، وحوار موضوعى مع قداسة بابا الفاتيكان .

٢ـ فى اللغة الإنجليزية :

- ترجمة لكتاب : "حقائق إسلامية فى مواجهة حملات التشكيك" ، وكتاب : "مقاصد الشريعة الإسلامية وضرورات التجديد" ، وحوار موضوعى مع قداسة بابا الفاتيكان .
- ثلاثة بحوث مترجمة إلى الإنجليزية منشورة فى القاهرة وبرمنجهام (إنجلترا) ونيودلهى (الهند) وهى على التوالى :
- "دور الإسلام فى تطور الفكر الفلسفى" ، "الصلات الثقافية بين العالم الإسلامى والغرب" ، "السلام فى نظر الإسلام" ، وقد نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ومكتبة الشروق الدولية البحوث الثلاثة الأخيرة بالإنجليزية فى كتاب بعنوان :

"On philosophy Culture and Peace in Islam".

٣ـ فى اللغة الفرنسية :

- ترجمة لكتاب : "حقائق إسلامية فى مواجهة حملات التشكيك" .
- "الحوار الإسلامى المسيحى" .
- حوار موضوعى مع قداسة بابا الفاتيكان .

٤ـ فى اللغة القازاقية :

- ترجمة لكتاب : "حقائق إسلامية فى مواجهة حملات التشكيك" .
- "الإسلام وقضايا الحوار" .

٥ـ فى اللغات الروسية والتايلاندية والإسبانية والإندونيسية .

- ترجمة لكتاب : "حقائق إسلامية فى مواجهة حملات التشكيك" .

٦ـ فى اللغتين التركية والإندونيسية :

- ترجمة لكتاب : "الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى".

٧ـ فى اللغة البوسنية :

- ترجمة لكتاب : "فلسفة الغزالى مع مقارنتها بفلسفة ديكارت" .

٨ـ فى اللغة الفارسية :

- ترجمة لكتاب : "الإسلام والغرب" .

٩ـ فى لغات أخرى :

وبالإضافة إلى ذلك تمت ترجمة بعض البحوث التى ألقيت فى بعض المؤتمرات فى أوروبا إلى الفرنسية والإسبانية والإيطالية والأوردية ، وهى على التوالى : "قضية الحوار بين الأديان السماوية الثلاثة " ، "إسهام الإسلام فى صنع ثقافة السلام" ، "التوحيد والنزاع فى نظر الإسلام " ، " السلام فى نظر الإسلام" .

ثالثاً : مساهمات فى أعمال علمية أخرى :

- ترجمة كتاب : بوخينسكى : "مدخل إلى الفكر الفلسفى" من الألمانية إلى العربية (دار الفكر العربى) .
- الاشتراك فى ترجمة كتاب بروكلمان : "تاريخ الأدب العربى" إلى اللغة العربية.
- مراجعة على النص الألمانى لترجمة د. إمام عبدالفتاح إمام للجزء الخاص بالعالم الشرقى من كتاب " "فلسفة التاريخ هيجل" دار الثقافة للنشر والتوزيع ١٩٨٦ .